مغارة ام السرج

لا أغادر في سياحاتي البحث عن الآثار القديمة والمشاهد الطبيعية . وذلك توصلاً لاكتناه غوامض التاريخ والجغرافيا اللذين لا يزال كثير من أوابدهما في بلادنا محتاجاً للتحقيق . وبينما كنت أتجول في قضاء منبج « شمالي شرقي حلب » خلال شهر تموز ١٩٢٦ ذكر لي ان هنالك مغاور تخلب الالباب بعظمتها ودقة صنعها وغرابة منظرها . ولما كنت قد زرت في القسطنطينية مغارة (كوچك چكمجه) احدى محطات سكة حديد الروملي ورأيت ما حوته من الآثار الجيولوجية البديعة أملت ان أشاهد ما يشبهها في المغاور التي ذكرت لي فأسرعت الى زيارتها . وهي تبعد عن منبج نحو ١٤ كيلومتراً الى الجنوب وعن حلب ٨٨ كيلومتراً الى الشرق .

استصحبت من القرية القريبة للمغاور واسمها « مقبلة حسن اغا » أدلاء ومصابيح . فسرنا نرتقي جبلاً مستطيل الشكل يمتد من الغرب الى الشرق . وبعد ان سرنا نصف ساعة وصلنا الى ذروته فأشرفنا على ما حوله من السهول الشاسعة . رأينا في شرقنا « الفرات » ينساب عن بعد حاملاً مياه بلاد الترك والكرد الى ثغور العراق والخليج الفارسي وفي شمالنا بلدة « منبج » تندب مجدها القديم وحولها هضبات متسلسلة حتى نهر « الساجور » احد فروع الفرات وماوراءه من تخوم تركيا الحديثة . وشاهدنا في الغرب قريتي تاتف و بزاعة الشهيرتين في تاريخ الاسرائيليين والصليبيين وقد علتهما أكمة قام فوقها مسجد ذو مأذنة عالية باسم احد الصلحاء المسمى « الشيخ عقيل » . ورمقنا في الجنوب براري وفيافي تضيع بعد حين في الأفق الغارب في بادية الشام .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في ذروة هذا الجبل المطل على تلك المناظر الجميلة والمحفوفة بذكريات عريقة في قدم التاريخ استقبلنا شقاً كثير الطول والعرض ، قد نقر في الصخر كما تنقر أخاديد السكك الحديدية في ايامنا ، وجعل على ما يظهر منفذاً لما بعده تقف فيه الحراس ، وتحول دون تخطي الغرباء منه ، فبعد ان عبرنا الشق دون عائق انتهينا الى وسط ساحة فسيحة تحيط بها جدران عالية من الصخر الابيض ، نُقرت فيها كهوف منتظمة بعضها بجانب بعض ، وهي تشبه باصطفافها حوانيت الأسواق في المدن ، وربما كانت خاصة بشراء الحاجات وبيعها من سكان المغاور التي نحن بصددها . وبعد ان اجتزنا الساحة أشرفنا على أعظم المغارات وأجلها شأناً وهي المسماة « مغارة أم السرج » . سميت بذلك لان شدة ظلامها تجعل استعمال السرج فيها لازمة . وفوهة هذه المغارة واسعة بقطر خمسة عشر متراً ملئت جلاميد الصخور المتكسرة والمتدحرجة من سقف الفوهة وقمة الجبل . وقد تشعث بذلك باب المغارة وردم درجها بأسره فأصبح النازل محتاجاً للزحف على أليتيه تارة والاستمساك بهذا وذاك من الاحجار تارةً أخرى .

انحدرنا من الفوهة على النحو الذي ذكرنه مقدار خمسين متراً الى أن وصلنا الى مستوى المغارة حيث قل النور وأرخى الظلام سدوله . فأضاء الادلاء المصابيح وساروا أمامنا وتبعناهم نتوكأ على العصى التي حملناها ونتلمس الجدران بايدينا وأخذنا نجتاز مضايق ومعاطف ونجتاز مخارم وفجاجاً ونصادف أقبية عظيمة وأبهاء وسيعة . وكل ذلك محفور في الصخر وآثار الحفر ونقر الامشاط والمطارق والأزاميل بارزة تكاد تظن ان الحجارين والنحاتين قد انتهوا من اعمالهم وخرجوا في تلك الساعة . وتجد في وسط الجدران كنها كوات صغيرة بعضها فوق بعض تمتد من الارض الى السقف ، وهي تشبه ما يعمل في جدران الآبار لوضع الارجل اثناء الصعود والنزول اليها وتجد في محلات عديدة ايضاً كوات اكبر منها لوضع السرج او المصابيح ولا تزال آثار الدخان ظاهرة فيها حتى الآن .

وقد وجدت سعة كل بهو لا تقل عن استيعاب مائتي شخص او اكثر ، كانوا يجتمعون فيها على ما يظهر لاستماع الخطب او العظات الدينية او للمداولة في امور مهمة . ذلك لان بعض الابهاء يحوي في صدره مقاعد ومصاطب منقورة في الجدار جعلت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الجلوس علية القوم ، وفوق الجميع مقعد كالأريكة كان خاصاً بالقائد او الكاهن الاكبر في الغالب .

وقد تذكرت وانا أجوز خلال تلك الدهاليز والغيران حالة السائحين اللذين وصفهما الروائي الافرنسي الشهير (جول فرن) في احدى رواياته العلمية المسماة « رحلة تحت الارض » . فقد دخل السائحان كهفاً في جبال الالب وظلا يسيران في احشاء الارض و يجتازان أجوافها وسراديبها المظلمة و يشاهدان عجائب تكوّن طبقات الارض وأدوارها الجيولوجية الاربعة ، وما حوته أحافير النباتات والحيوانات ، وأجناس الصخور والمعادن الى ان قذفتهما التقادير — بخارقة لا تسعها الا مخيلة الروائيين — من فوهة بركان جزيرة اسلاندة في اقصى الشمال الغربي من قارة اوربا . وما كان قصد (جول فرن) من هذه الرواية الا حمل مطالعيها على تفهم دقائق علم الجيولوجية بهذا الاسلوب اللطيف . شأنه في سائر رواياته التي يبحث في كل منها في احد العلوم الطبيعية .

ولما بلغ منا التعب والظمأ مبلغه وتمثلنا جرعة من الماء صادفنا في احد الاقبية بئرين ملأ نين ماءً عذباً بارداً ، شربنا منها وغسلنا الأوجه والأيدي واستراحنا برهة . وقد حاولنا ان نسبر غورهما فلم نتوفق لوفرة عمقهما . وهذان البئران من اعجب ما يذكر عن هذه المغارة . ولولاهما لما استطاع حافروها وساكنوها العمل والمقام فيها .

هذا وقد بقينا نحو ساعتين في ذلك الظلام القاتم ندخل في بهو ونخرج من قبو ونصعد درجاً ونجتاز سرداباً ، ولا يستطيع احدنا ان يبتعد عن دليله او رفيقه خشية الضياع والهلاك . ونحن في أشد الحيرة من عمل اولئك الذين بذلوا الهمم الشماء في نقر هذه الصخور الصماء وتمهيدها وتقسيمها على هذا النحو في أحشاء هذا الجبل الشامخ وتحت عمق لا يقل عن ٧٠ — ٨٠ متراً وطول وعرض هائلين لا مجال لتقديرهما . فكم فرقة من فرق العمال عملت في الحفر وكم الوف من الدنانير أنفقوها في هذه السبيل ؟ ذلك ما كنت افتكر به ولا اصل الى حله .

ومن الغريب انني رغم التحقيق والتفتيش في الجدران والسقوف لم اعثر على أثر لكتابة او نقش او رسم لاستدل منه على سبب حفر هذه المغارة الهائلة وتاريخها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واسم ساكنيها وحافريها الاقدمين . ولا على شيء من العلائم الجيولوجيه كأحافير النباتات والحيوانات واعمدة الستلاكتيت والستلاكميت التي توجد عادة في اشياه هذه الكهوف — اذا كانت طبيعية — ولم أجد معنىً لدفن هؤلاء الناس انفسهم في هذه الهوة السحيقة ومكوثهم في هذه الاقباء والغيران المدلهمة الرطبة . الا ان يكون ذلك لغرض ديني او سياسي ، فهم اما كانوا يستعملونها كمعبد خفي يقيمون فيه شعائر ديانتهم السرية بدليل وجود المصاطب والارائك التي ذكرتها . واما انهم كانوا يتخذونها حصناً يلجؤون اليه عند إحاطة الاعداء بمدينتهم التي يشاهد بعض طلولها خارج المغارة وعلى السفح الجنوبي للجبل . او انهم كانوا يسجنون فيها من غضبت عليه ملوكهم او كهانهم او وقع اثناء الحروب في قبضتهم فيمتقلون السجناء او الاسرى في هذه الظلمة والرطوبة اللتين تهدمان اشد الابدان قوة وصحة .

ولم تحرم هذه المغارة العجيبة من سكنى الاحياء والاستئناس بهم . فقد كنا نصادف الوفاً من الخفافيش المعتادة حياة الظلمة والرطوبة جاثمة على الجدران والصخور ، وشاهدنا زرقها الذي ظل يتراكم منذ مئات من السنين فأصبح اكواماً كالبيادر . وقد افهمت القرو بين الذين رافقوني منافع هذا الزرق وانه من انفع الاسمدة المؤدية لخصب الارض وان الاوربيين يستجلبون مثيله من جزر اميركا الجنوبية ويدعونه (غوانو) و يبيعونه حتى في بيروت بأغلى الاثمان ، ونصحتهم بان يخرجوا منه ما يكفيهم ويسمدوا حقولهم وكرومهم فوعدوني بالايجاب .

هذا وما زلنا في صعود وهبوط ودخول وخروج حتى أعيينا وخشينا ان نصل الى فوهة بركان قد لا يرحمنا كما رحم سائحي رواية (جول فرن) فلا يقذفنا سالمين . لاسيما وقد اخذت منا قشعريرة الرطوبة في تلك الكهوف الظلماء كل مأخذ فاكتفينا بما رأيناه وعدنا أدراجنا الى فوهة المغارة وشرعنا بالصعود رويداً رويداً نستعين باليدين والرجلين الى ان منّ الله علينا بالوصول الى سطح الارض ورؤية النور والشمس فانتصبنا ننفض عنا آثار حياة الآخرة و يهنئ بعضنا بعضاً بالسلامة .

وقد ظهر ان الذي أعان القوم على الحفر والنقب هو لين الحجر الذي يتكوّن منه الجبل لانه من الصخور الطباشيرية البيضاء المنتسبة للدور الثلاثي من ادوار الجيولوجيا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولو كان من الصخور البركانية كالبازالت الاسود لما استطاعوا الى ذلك سبيلاً . على ان لين هذا الصخر جعله بحيث يتأثر على كر الاحقاب بفعل العوامل الطبيعية من حر وقر ، ولذا ترى السيول تصدعه وتجزئه رويداً رويداً . وهذا ماجعلني ارى في اكثر الاقباء جلاميد عظيمة ساقطة من اعلى السقوف او الجدران وقد سدت بعض الابهاء والدهاليز او شعثت الدروب .

ثم ان الادلاء قادوني الى مغارة ثانية اصغر من الاولى بكثير ، وفيها ماء عذب يرشح من نبع من سقفها و يسيل بلا انقطاع القطرة تلو القطرة ، وقد وضع الاقدمون في موضع سقوطه على الارض جرناً تجتمع القطرات فيه فيتكوّن منها كمية من الماء تكفي لشرب عشرات من الرجال . وقادوني الى مغارة ثالثة فيها سرداب قليل العمق ينبع من جداره ماء عذب ، حفروا له حوضاً كانوا يستقون منه عند اللزوم . ولا يزال رعاة الغنم والإبل السائمة في هذه الجبال وبعض الاشرار الهاربين من يد القضاء يلجؤون احياناً الى هاتين المغارتين ويقتنعون بمياههما .

وقد سألت الادلاء وصاحب القرية القريبة لهذه المغاور عما اذا كان دخلها قبلي احد من مفكري البلاد او من السياح الاوربيين فأجابوني عن الأولين بالسلب وعن الثانين بانه لم يزرها الا سائحان المانيان قبيل الحرب العامة ذهبا على امل الرجوع للبحث والتنقيب فيها فحالت الحرب دون عزمهما . وذكروا خرافة عن سائح مغربي قالوا انه قرأ وهو في بلاده في احد الاسفار القديمة خبر مغارة ام السرج وعلم بانها تحوي كنزاً عظيماً فجاء اليها واستصحب ادلاء من القرية ولكنه لما وصل بعد البحث والتنقيب الطويلين الى باب الكنز وحاول فتحه هوت صخرة عظيمة من سقف القاعة فسدته . ولما عجز عن زحزحتها او تحطيمها رجع خائباً .

وبعد مغادرتي تلك الربوع راجعت كتب التاريخ والآثار التي تبحث عن الديار الحلبية فلم اجد ذكراً لضالتي سوى بيان موجز لما كانت عليه بلدة منبج او (Hiérapolis) من العمران والرقي في العصور القديمة والمتوسطة . قال « ايزامبر » و «شوفه» مؤلفا كتاب دليل الشرق (Itinéraire de l' Orient) ما ملخصه : ان السريانيين كانوا يسمون منبج « مابوج » ثم جاء اليونانيون فنعوها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هيرابوليس اي (البلدة المقدسة) لانها كانت العاصمة الدينية لكل بلاد الآراميين. فقد ذكر المؤرخ (لوسيان) ان هيكلها كان من أفخم الهياكل وأغناها في تلك العصور ومن اكثرها حظوة باحتفال الأعياد والمواسم . وكان هذا الهيكل مخصصاً للات « ربة » سورية التي دعاها المؤرخ سترابون (آترا كاتيس) . وكان صنم هذه اللات يمثلها راكبةً على مركبة تجرها الاسود وفي يدها آلة موسيقية وعلى رأسها التاج . وكانت منبج قديماً بلدة حصينة ، لان كيخسرو لما هاجمها وجدها محاطة باسوار منيعة لم يستطع اقتحامها فاكتفى بمطالبة اهلها بجزية قدرها ثلاثة آلاف دينار فضي . وكان باب هذه الأسوار في الجهة الغربية ، وأمام الباب بحيرة وسيعة وجد فيها المؤرخ « لوسيان » سمكاً مقدساً لدى المنبجيين ورأى في وسط البحيرة هيكلاً من الرخام يمثل ربة السمك وذكر انهم كانوا في ايام الأعياد والمواسم ينقلون جميع اصنام أربابهم ويصفونها حول هذه البحيرة و يقيمون حفلاتهم الدينية و يرقصون ويطربون انتهى .

واليك ما ذكره السائح الاندلسي ابن جبير عن مدينة منبج الذي مرَّ بها في اوائل القرن السابع . قال : « منبج بلدة فسيحة الأرجاء ، صحيحة الهواء ، يحف بها سور عتيق ممتد الغاية والانتهاء ، جوها صقيل ومجتلاها جميل ، ونسيمها أرج النشر عليل ، نهارها يندي ظله ، وليلها كما قيل فيه سحر كله ، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الاشجار مختلفة الثمار . والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها وخصص الله داخلها بآبار معينة ، شهدية العذوبة ، سلسبيلية المذاق ، تكون في كل دار منها البئر والبئران وارضها ارض كريمة تستنبط مياهاً كلها وأسواقها وسككها فسيحة متسعة ودكاكينها وحوانيتها كأنها الخانات والمخازن اتساعاً وكبراً ، واعالي سوقها مسقوفة ، وعلى هذا الترتيب أسواق اكثر مدن هذه الجهات . لكن هذه البلدة تعاقبت عليها الأحقاب حتى اخذ منها الخراب كانت من مدن الروم العتيقة ولهم فيها من البناء آثار تدل على عظم امتنانهم بها ولها قلعة حصينة في جوفيها تنقطع عنها وتنحاز منها الخ .

فبلدة مقدسة هذه حالتها في تلك العصور من الرفه والعمران لا يبعد ان يقوم سكانها و يحفروا على مقربة منهم هذه المغاور التي وصفتها ويتخذونها اما معبداً او حصناً او معقلاً . هذا اذا لم يكونوا جعلوها مدفناً لعظمائهم او مذخراً لكنوزهم ودفائنهم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التي لم يسعدني الحظ بالعثور عليها وياللأسف . ولعله يقوم غيري من ارباب الولع او يأتي امثال اللورد كارنارفون فيبذل من المتاعب والنفقات ما عسى ان يوصله لما يشبه كنوز « توت عنخ آمون » وكل مفعول جائز .

المهندس الزراعي
وصفي زكريا